سِتْراتِيجِيَّاتُ
احْتِواءِ النِّفاقِ فِي المَنْظُورِ القُرْآنِيِّ

أ.م.د. محمد ميرزائي
مشهد – جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

يدور البحث حول ظاهرة انبثقت منذ انبثاق الاسلام وهي ظاهرة النفاق والمنافقين. وقد تعامل النبي ﷺ معهما تعاملاً حكيماً موحىً من عند الله وذلك باحتوائه وعدم مجابهته وبطريقة مؤثرة وفاعلة. وقد استعرض الباحث بعض هذه الستراتيجيات ملقياً الأضواء عليها مستنداً الى الرؤية القرآنية والتفسير والمصادر التاريخية واداء المحللين من أهل الرأي وأثبت الباحث ان القرآن الكريم حدد خطط الاحتواء ضمن صنفين: ستراتيجيات ثقافية–اجتماعية واخرى سياسية، يقع بعضها في عرض الأخر أو في طوله فهي ستراتيجيات متلازمة الحلقات جاءت تطبيقاتها في أحداث كشفها القرآن الكريم.

ملخّص البحث:

إن من أخطر التحديات المحدقة بالمجتمع الإسلامي، وجودَ ظاهرةٍ معادية للإنسان تُدْعَى «النفاق»، وتواجُدَ شرذمة كذّابة، طمّاعة، انتهازية، خؤونة تُسَمَّى «المنافقين»، وَسِمَتُهُم البارزة هي ازدواجية ألسنتهم وضمائرهم وثنائيتها. نظراً إلى التأثيرات الفردية والاجتماعية الهدّامة لهذه الظاهرة في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية، يبدو ان وجود خطط أو ستراتيجيات احتواء مؤثّرة وفاعلة و رادعة، ضرورةً قصوى لا بدّ منها. والقرآن الكريم انطلاقاً من رسالته، وتحقيقاً لمجتمع آمن، نبّه في آيات عدّة إلى خطر النفاق، راسماً بذلك خططاً متنوعة لاحتواء النفاق وأهله على اختلاف درجاتهم.

استعرضت هذه الدراسة القرآنية، بعض هذه الستراتيجيات، ملقية الأضواء عليها، معتمدة مصادر التاريخ والتفسير والحديث. حدّد القرآن خطط الاحتواء أو ستراتيجياته ضمن صنفين: ستراتيجيات ثقافية -اجتماعية، وأخرى سياسية يقع بعضها في عرض البعض أو في طولها. يُعَدّ من خطط الاحتواء الثقافية -الاجتماعية كلٌّ من: المداراة الرامية إلى الهداية، وإعداد علماء دينٍ متضلعين دعاةٍ رادعين، والتعريف الصحيح بالرؤية الكونية التوحيدية، والحؤول دون تسلل المنافقين إلى مؤسسات الحكومة الثقافية والاجتماعية البناءة للإنسان المسلم، وفرض أنواع الحرمان من ممارسة الأنشطة الاجتماعية. أما خطط الاحتواء السياسية فتتمثّل في التزام القياديين وأصحاب القرار بالتقوى، والاحتراز من اعتماد نُظُم الكفار والمنافقين وانتهاجها، ورصد علاقات المنافقين مع الكفار، و رفع الكفاءات الإدارية للبلاد وضبط الموقف السياسي والتحكم فيه، وكشف النقاب عن الوجوه المنافقة عبر تنوير الرأي العام، والتفويض الموجّه للمهام إلى أهلها، وتصريف التيار المنافق و تحويله إلى فرصة مواتية، وأخيراً التعامل القهري الصارم.

المفرادات الأساسية: القرآن، النفاق،

ستراتيجية، الاحتواء.

مقدمة البحث:

إنّ النفاق يعني سلوكاً مغايراً مناقضاً للقول يتفشى من خلال شريحة أو طيف طمّاع انتهازي سياسي خدّاع مفوّه وضارٍّ في الوقت نفسه. في الرؤية القرآنية هذه الازدواجية بين اللسان والضمير، تُدْعَى «النفاق» كما يدعى المصاب بها «المنافق». يتزامن ظهورها مع ظهور الإنسان أما بداياتها وإرهاصاتها الأولى في الإسلام فتعود إلى السنوات الأولى لدعوة الرسول الأعظمﷺ، حيث دبّت هذه الظاهرة خفيّة في أوصال المجتمع الإسلامي كآفة خطرة[1]. تزامناً مع قيام الدولة النبوية في المدينة المنورة وتنامي الاقتدار النبوي فيها، تحوّلت هذه الظاهرة إلى تيار متنامٍ وأبدت ردود فعل مختلفة. على مرّ الزمن، والتقدم العلمي و التطور الصناعي ما تلته من طفرة في الأجهزة والإمكانات، لم ينحسر مدّ هذه الظاهرة فحسب، بل ازداد تعقّداً بتقدّم العلم وإمكاناته (مطهري؛ ١٣٦٨ش: ١و٢/ ١٤٩ - ١٥٠). ونظراً لوجود هذه الظاهرة في المجتمع الديني، وإمكانية نفوذها في مؤسساته، وجّه القرآن رسائل إنذارٍ، واعتبر المنافقين كفّاراً بمعنى الكلمة ووعدهم مثوى أسوأ من جحيم الكفار. ولا شكّ في أن أيّ مجتمع بشريّ لا يتجاهل آفاته الاجتماعية والسياسية إذا أراد البقاء والاستمرار، حيث يتمتع بخطط مواجهةٍ واحتواء، بغضّ النظر عن سلبياتها و إيجابياتها، تقوم على مبادئه الفكرية. وفي ضوء الآيات الكثيرة التي نزلت بشأن النفاق، يطرح السؤال التالي نفسه على بساط البحث: ما هي الستراتيجية القرآنية الرئيسة لاحتواء هذه الظاهرة الهدّامة وأهلها، أو مواجهتها؟.

تختلف مواجهة القرآن لها باختلاف درجاتها ومراتبها. لذلك يأخذ القرآن بنظر الاعتبار ظروف المجتمع الإسلامي ومتطلباته؛ الأمر الذي يحدو بنا إلى القول

(١) ر. ك: "پيدايش پديده نفاق از منظر قرآن" (نشوء ظاهرة النفاق من منظور القرآن)، ميرزائي، محمد مجله تخصصي دانشگاه علوم إسلامي رضوي، ١٣٨٣، العدد ١٤. ص١٣٧ - ١٢١.

بأنّ للقرآن ستراتيجية مبدئية تجاه النفاق وأهله.

إن نظرة القرآن إلى الإنسان القائمة على الهداية، ونظرته العادلة إلى الجريمة من جهة، وضرورة تكوين مجتمع نزيه آمن من الآفات والسلبيات الخُلقية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى، كلّ ذلك يبيّن ضرورة التعرّف على الستراتيجية القرآنية الرشيدة لمواجهة هذه الظاهرة الهدّامة وأهلها، أو احتوائها. وفي التفاسير وكتب الأخلاق إشارات متفرقة عديدة إلى علامات النفاق وصفات المنافقين. إلا أنّ الحلول القرآنية لاحتواء ظاهرة النفاق وأهله على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، لم تحظَ بدراسة جادة تُذْكَر، بينما نرى غالبية الآيات القرآنية المتعلّقة بالنفاق تدور في فلك هذا الموضوع.

لقد توصّل الباحث في هذه الدراسة القرآنية، معتمداً مصادر الحديث والتاريخ، إلى أنّ الذكر الحكيم بفضل وعيه التامّ لمستويات النفاق، يتمتع بستراتيجية ملائمة للنفاق على اختلاف أطواره ومستوياته؛ تتناغم هذه الستراتيجية والرؤية القرآنية عن الإنسان والمجتمع البشري. وتمثّل هذه الدراسة محاولة لاستجلاء جوانب من الستراتيجية القرآنية المتألفة من المداراة والتهديد والجهاد؛ مما يمكن تصنيفه إلى ستراتيجيات ثقافية –اجتماعية، وأخرى سياسية؛ ولكل صنف في احتواء النفاق على درجاته، وظائف ثنائية أو مكمّلة للصنف الآخر.

١. ستراتيجيات ثقافية –اجتماعية لاحتواء النفاق.

١. ١/ المداراة واللين الهادفان إلى الهداية:

لا يتبنّى الإسلام التعامل القهري العنيف كخطوة أوّلية بناءً على مراتب النفاق المتعددة[٢]، ومتطلبات المجتمع الإسلامي وظروف المنافقين من جهة، ومن جهة أخرى بناء على الرؤية الإسلامية الهادية؛ بل إنّ الإسلام وفي ضوء واجبه المتمثّل في هداية الناس

(٢) ر. ك: ميرزائى، محمد، «مفهوم‌شناسى نفاق، انواع و مراتب آن از منظر قرآن»، آموزه هاى قرآنى، ١٣٩٠، الرقم ١٤، ص١٥١ -١٣١.

وترقيتهم وكمالهم، يقدّم الوعظ والنصح البليغين كستراتيجية متكاملة ويفرضها على الحكّام و ولاة الأمر.

تُعدُّ المداراة أكثر عوامل الإصلاح والتأهيل الاجتماعي فاعليةً، وتُعَدّ عاملاً في استمرار العلاقات الاجتماعية السليمة القويمة، كما أنها إحدى المبادئ والمنطلقات الثابتة التي اتخذها الأنبياءعليهم السلام سلاحاً ماضياً، وفي ذلك يقول خاتم الأنبياءصلى الله عليه وآله: «إنّا معاشرَ الأنبياء أُمِرْنا بمداراة الناس، كما أُمِرْنا بأداء الفرائض» (الطوسي: ٢/ ١٥٣) والله سبحانه يعزو نجاح الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله إلى تعامله اللين الملائم للجماهير قائلاً: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩] كما أن الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله -بصفته هادياً للمجتمع، ومديراً على الصعيد العالمي- لم يهمل توظيف عنصر المداراة، حيث قال: «رأسُ السياسةِ الرِّفْقُ» (الآمدي؛ ١٤٠٧هـ: ١/ ٢٣٧) فقد كانت سيرتهصلى الله عليه وآله الأخلاقية مبنية على الرفق بأمّته ومداراتهم إلى حدّ كبير، الأمر الذي أثار سخط المنافقين فسمّوه أذناً!، ذلك أنّهصلى الله عليه وآله كان ينظر إلى الناس نظرة تكريم واحترام، ويصغي إليهم ويحمل كلامهم محمل الصدق، حتى أنّ المنافقين كانوا يفاتحونه بالكلام دون حاجز يُذكَر؛ وإنْ لم يكن استماعهصلى الله عليه وآله لهم يعني تصديق مسموعاته. لكنّ مجرد استماعه للجميع، دفع المنافقين إلى ذمّه واعتباره أذناً صاغية للقائل وكلمته أياً كان، وبالطبع لم يكن هذا التعامل ملائماً في رأي المنافقين: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

النفاق ظاهرة نفسية اجتماعية:

ما لم يكن النفاق يتحوّل إلى تيار ذي طابع سياسي كان الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله ينظر إليه كمرض نفسي سببه الابتلاء بالرذائل الخُلقية ويتطلب علاجه دواءً

خاصاً. والنبي الذي كان طبيباً حاذقاً دوّاراً بطبّه (السيد الرضي؛ الخطبة رقم: ١٠٨) يبحث عن مرضى حيارى صُمٍّ بُكْم عُمْي، فكان طبيب الأرواح والنفوس؛ إذ بيده البلسم والمشرط، فعلى أساس الرفق والمداراة يسرع إلى علاج المصاب بالنفاق فور ابتلائه. كان يسعىﷺ دوماً لهداية الناس قلقاً من إصابتهم بالأمراض النفسية وخروجهم من سواء السبيل، و وقوعهم في شرك النفاق الذي يحرق إنسانية الإنسان، لذلك يقول القرآن مستميلاً الرسول الأعظمﷺ لحزنه على ابتلاء البعض بالنفاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ .. ﴾ [سورة المائدة: ٤١]. «أي تجاهل أمرهم، فلا تقبل منهم عذرا، لأنهم يستغلون قبولك هذا في أغراضهم، و لا تعاقبهم، لأنهم اعتذروا و لو ظاهرا» (مغنية؛ ١٩٩٠م: ٢/ ٣٦٦) «ولا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم، و لا تزد على كفهم بالموعظة و النصيحة عما هم عليه» (الزمخشري، ١٤٠٧ق، ١/ ٥٢٧، والمدرّسي؛ ١٣٧٧هـ: ٢/ ١١٠) وانصحهم وعامِلْهم معاملةً تجعلهم يشعرون بالذنب وكلّمهم كلاماً يَعونَهُ وينتبهون إلى مغبّة أعمالهم، ويزرع في نفوسهم الخوف والذعر: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[سورة النساء: ٦٣].

وفي تفسير له بيّن الفخر الرازي بجلاء المراحل الثلاث لعلاج ظاهرة النفاق الذميمة على مستواها الفردي، والذي يرى الرسولﷺ علاجه واجباً عليه: «اعلم أنه تعالى أمر رسولهﷺ أن يعاملهم بثلاثة أشياء: الأول: قوله: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ و هذا يفيد أمرين أحدهما: أن لا يقبل منهم ذلك العذر و لا يغتر به، فإن من لا يقبل عذر غيره و يستمر على سخطه قد يوصف بأنه معرض عنه غير ملتفت إليه. و الثاني: أن هذا يجري مجرى أن يقول له: اكتف بالإعراض عنهم و لا تهتك سترهم، و لا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من

هتك ستر عدوه و أظهر له كونه عالما بما في قلبه فربما يجرّؤه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة فيزداد الشر، و لكن إذا تركه على حاله بقي في خوف و وجل فيقل الشر. النوع الثاني: قوله تعالى: وَ عِظْهُمْ و المراد أنه يزجرهم عن النفاق و المكر و الكيد و الحسد و الكذب و يخوفهم بعقاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[سورة النحل: ١٢٥]. النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (الفخر الرازي؛ ١٩٩٠م: ١٠/ ١٢٤).

١. ٢/ التبيين الصحيح للرؤية الكونية التوحيدية:

تُعدُّ قضية الموت وموقف الأفراد والتيارات السياسية منها، أحدى المعايير القرآنية لتقييم صحة الأداء أوسقمه [سورة البقرة: ٩٤ وسورة الجمعة: ٦] وما عدا العملاء المرتزقة، فإنّ أهل الطاغوت من كفار ومنافقين، يهربون من الموت ومن كل ما يرجّح كفّة احتمال الموت كالحرب والجهاد، مذعورين قلقين. كما أثار مخاوفهم وهواجسهم في صدر الإسلام، نزولُ سورة قرآنية تكتب عليهم القتال: ﴿ ... وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[سورة النساء: ٧٧]. والقرآن الكريم الذي يشكّل الإنسان موضوعه الرئيس، وتشكّل الهداية قطب رحاه، يأمر في مثل هذه المواقف، الرسول الأعظمﷺ بتقويم فكرة المنافقين الخاطئة عن الحياة والموت عبر تسليط الأضواء على الرؤية الكونية الإسلامية القويمة: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[سورة التوبة: ٥٢].

حصيلة مثل هذا الأداء تشكّل تهديداً للمنافقين فضلاً عن التوعية والتوجيه، ليعرفوا أنّ خداعهم للمؤمنين لن يجدي نفعاً فحسب؛ بل يعود عليهم بإحدى الحسنيين: «فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين؟.

إنها الحسنى على كل حال. والنصر الذي تعلو به كلمة اللّه، فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق وعليا الدرجات عند اللّه. و ماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين؟. إنه عذاب اللّه يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو ببطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل للمشركين» (سيد قطب؛ ١٩٦٧م: ٣/ ١٦٦٥).

كما فسّر الطبرسي: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ معناه هل تنتظرون لنا إلا إحدى الخصلتين الحميدتين و النعمتين العظيمتين إما الغلبة و الغنيمة في العاجل و إما الشهادة مع الثواب الدائم في الآجل». (١٩٨٦م، ٥/ ٥٨).

إن سورة الأحزاب التي تسرد علينا أحد أحسم المواقف و أخطر الظروف المصيرية في حياة الرسول ﷺ، تكشف عن الحيرة والهلع الشديدين في معسكر النفاق، وتبيّن لنا كيف سلق المنافقون المسلمين بألسنة حداد ولاموهم لإنقاذ أنفسهم من غارة واسعة شنّها الكفار، حيث يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ١٧] «كانت الآية السابقة تنبيها لهم على أن حياة الإنسان قضاء مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و في هذه الآية تنبيه -على أن الشر و الخير تابعان لإرادة الله محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه. (الطباطبائي؛ ١٤١٧هـ: ١٦/ ٢٨٧)» إذن يستدعي الحذرُ وتقتضي الحيطة أن يتوكل الإنسان على الله مفوّضاً إليه الأمور. فالآيات المذكورة أعلاها التي تخاطب المنافقين تأمر الرسول ﷺ من جانب الله تعالى بـ: ﴿ قُلْ ﴾ أي بيّن الحقائق إزاء خوف المنافقين وهروبهم من الموت اللذين يشكّلان عاملاً للنفاق، ووضّح لهم الرؤية الصحيحة عن الموت والدور الإلهي في بداية الأمور وخاتمتها، لينهجوا محجة الهداية،

وينجوا من السقوط في جحيم النفاق.

ولا ريب في أنّ التوصيات القرآنية المتكررة القاضية يتبيين الرؤية الكونية التوحيدية، والقدرة الإلهية العظمى في تدبيرالأمور، وتقديم تعريف صحيح للموت والحياة إلى المنافقين، لا شكّ أن ذلك كلّه يصبّ في اتجاه التعامل الستراتيجي الإسلامي الهادي البنّاء للإنسان مع النفاق وأهله، ويشمل جميع مراتب النفاق والمنافقين الذين لم يرتكبواجريمة خاصّة.

١. ٣/ صيانة المؤسسات الثقافية والاجتماعية والإنسانية في النظام الإسلامي:

يشكل التوغّل في مراكز القرار التربوية والثقافية والاجتماعية والهيمنة عليها إحدى أهمّ الآليات التي يتبنّاها النفاق الداخلي والدولي. ويمثّل مسجد الضرار حقيقة تاريخية تفكّ شفرات النوايا الخبيثة لأعداء الإسلام. إن المسجد يُعَدُّ معهداً لتعليم العقائد الدينية، ومدرسةً لإعداد الإنسان وتثقيفه في أجواء توحيدية، كما أنّه يُعْتبَر مصفاة للروح، ومركزاً لاتخاذ القرارات الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي. ولم تَغِبْ وظيفة المسجد الكبرى هذه عن بال الأعداء. لذا فإنّ نزول آية صريحة تحدّد أهداف المنافقين والتعامل النبوي الصارم والرشيد مع التيار الموازي والمنحرف المتمثّل بمسجد الضرار، يشكّل تحذيراً صارخاً موجَّهاً إلى مسلمي العالم ليعتبروا بالتاريخ عبر إنعام النظر، فيمنعوا من حدوث تجارب مماثلة، ولئلا تعود المساجد -بدلاً من سيرها إلى الله- مأمناً لحكومة المستكبرين، ومدرسةً للكفر والضلالة وبثّ التفرقة، وفسحةَ عملٍ للمنافقين المتناسكين. وربّما يمكن القول بأن المسجد في الآية هذه، يرمز لدور العبادة وإسداء الخدمات، والإعلام، والتعليم والتعلم و... واليوم لا بدّ من توظيف المساجد بأمثل شكل والتحلّي بالحيطة والحذر التامّين في صيانة المساجد وحفظها ورعايتها، نظراً إلى توزُّع مهامها على مختلف المراكز والمؤسسات. كما أنه لا يجوز إغفال

جميع المؤسسات والمنظمات الوطنية والدولية كالجامعات، و الحوزات العلمية، و مؤسسات الإعلام، و الإذاعة والتلفزيون، و الصحافة و السينما، ومؤسسات حقوق الإنسان، و و كالات الأنباء، و الصناديق الدولية للنقد والتعاون، والمنظمات الثقافية و الصحيّة، و جمعية الهلال (الصليب) الأحمر الدوليّ، وما إلى ذلك من مؤسسات تخدم الناس بشكل أو بآخر؛ إذ لا يُستبعَد أن ينخرط النفاق وأهله في كل واحدة من هذه المؤسسات والمنظمات بفضل شعاراتهم البراقة ومشاريعهم الخدّاعة، ليتحينوا الفرصة السانحة لتوجيه الضربة القاضية إلى جسد الأمة الإسلامية.

إنّ الله تعالى الذي أتمّ عنايته بالمسلمين، كشف النقاب عن النفاق وأهله ونواياهم الفاسدة وزيف ادّعاءاتهم، عبر تبيين هذه الآلية الخطيرة، وتقديم مصداق بارز له في عهد الرسول ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[سورة التوبة: ١٠٧ -١٠٨] بُنِيَ هذا المسجد بجوار أول المباني والمساجد الإسلامية أي مسجد قبا على أيدي أعداء الدين الألداء وبقيادة رؤوس منافقي المدينة المتواجدين في خارجها، وتمّ ذلك حينما وجد المنافقون خططهم للإطاحة بالدولة النبوية الفتيّة، قد ذهبت أدراج الرياح، فراحوا يفكّرون في خطة جديدة، وكان ذلك الطريق الوحيد الذي يمكنهم من طعن الإسلام. «و التعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى، و يراد به ما أريد بمسجد الضرار و تكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة و تُطَمْئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه

مسوح المصلحين... الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين!. إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرة ترسمه و تحركه بضع كلمات!.. ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم، في مواجهة دعوات الكيد و الكفر و النفاق!. و ليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد و الضرار!. و مشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته الأشرار و بناة كل مساجد الضرار» (سيد قطب؛ ١٩٦٧م، ج٣، ص١٧١١) وهذا المسجد الذي سمّاه الله تعالى بحقٍّ ضراراً، كان تحت إشراف أبي عامر الراهب الذي ترأس منافقي المدينة وكان يثير الرومان ضدّ النظام الإسلامي و هو الذي لم يعد يطيق تواجد الرسول ﷺ في المدينة، وفرّ هارباً إلى مكة وبعد إقامة قصيرة في الطائف، زاول تحركاته ضدّ المسلمين. (الواحدي؛ ١٤١١ ق، ص٢٦٤ -٢٦٥).

إن الغفلة عن خطط الأعداء، والانخداع بأقوالهم البراقة، وادّعاءاتهم الزائفة، لا ينبغي أن تحجبنا عن معرفة نواياهم. فالآيات القرآنية تكشف بوضوح عن مدى نوايا المنافقين الخبيثة على المستويين الداخلي والدوليّ، بحيث إذا تحقّقت لهم السيادة والهيمنة لا يرتضون بأقلّ من تدمير المنشآت الإنتاجية، سواء في ذلك الموارد البشرية أو الاقتصادية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾[سورة البقرة: ٢٠٤ -٢٠٦] الآيات المذكورة آنفاً تمثل تحذيراً وإنذاراً شديدين وتجسّد ستراتيجية لاحتواء النفاق، عبر ضرورة صيانة المراكز الحساسة للموارد البشرية، والإنتاج الفكري والحضاري بصفتها مراكز ستراتيجية للمجتمع، وكذلك عبر إقصاء أيدي المنافقين (الداخليين والدوليين) عنها، حيث يتواجدون عادة في الأوساط

بغية أهداف خيرية إنسانية تحت أغطية ومسميات متلوّنة.

١. ٤/ إعداد علماء دين متضلعين دعاة رادعين:

إن سرّ بقاء المجتمع واستمراره يكمن في التمتع بوعي صحيح عميق عن أصول الدين وفروعه (الطباطبائي؛ ١٤١٧هـ: ٩/ ٤٠٤) وإعداد علماء دين متميزين لتحصين المجتمع وتطعيمه ضد الآفات الفكرية والعلمية. ولا ريب في أن المنافقين بوصفهم مدّعين للتديّن عن كذب، وواقفين على نقاط ضعف المسلمين، لا يهملون حرف الدين عن مساره، وشقّ صفوف المسلمين المتلاحمة المتراصة كغطاء لنيل مآربهم؛ خاصة إذا كانت هذه المؤامرة تجمعهم والكفار. إذن أفضل الطرق للحؤول دون نشوء النفاق، ونفوذه وتنامي مدّه على مختلف الأصعدة، يتمثل في تكوين مراكز منظَّمة، وإعداد خبراء دين مفكرين من مختلف القوميات يقومون بالتوعية الدينية في صفوف الجماهير، ويحذّرون من مغبّة الرذائل الخلقية كالنفاق؛ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

إنّ إلقاء نظرة خاطفة على التاريخ البشري بما فيه تاريخ الإسلام، يزوّدنا بنماذج من مزوّرين غشّاشين استعانوا بأقدس الشخصيات والشعائر لنيل دنياهم، ولم يألوا جهداً في ممارسة الظلم بشتى ألوانه بعدما تربّعوا على العرش واستتبت لهم الأمور. كما أنّ امتلاك معرفة دينية صحيحة عميقة وتبليغها للناس يؤدّيان إلى ازدهار المجتمع وتطوّره، كذلك يقيان الناسَ السقوطَ في آفة النفاق الهدّامة، والانخداعَ بشعارات المنافقين الخدّاعة. إنّ نزول سورة التوبة ولا سيما الآية آنفة الذكر، فيما كان المنافقون يصولون ويجولون في العهد النبوي، يفيد تحذيراً إلى المسلمين يقضي بأنّ مجرد التواجد العسكري في المعارك لن يفي بالغرض الرامي إلى تحقيق أجواء آمنة تضمن السموّ

والرقي، بل إنّهما يتحققان في ظلّ المعرفة، والمعرفة محتاجة إلى التفقه في الدين. فكما أننا بحاجة إلى مجاهدين في ساحة القتال، فكذلك يعوزنا على الصعيد الديني طائفة مجاهدة للتوصّل إلى فهم وتفهيم دينيين صحيحين لئلا يقع الناس في حبائل المنافقين. إضافة إلى ذلك كله، فإنّ إبراز عواقب النفاق السيئة عبر توعية الجماهير يسلب المنافقين فسحة التحرك، ويمنعهم من الإيضاع خلال صفوف الحقّ، ويشكّل في حدّ ذاته ستراتيجية ثقافية لاحتواء النفاق والمنافقين. وسيد قطب نراه يستنكر الفقهاء والعلماء الذين يعتزلون زاوية متقوقعين بين أوراق الكتب بعيدين عن سوح الجهاد، ويرى أنّ النشاط والحيوية في مضمار الدين، والفهم والتفقّه الصحيح تعود للمجاهدين في ميادين القتال، ويجدّون في سبيل التغلب على الجُلِّ ومحوه في صفوف الجماهير. «و التجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب-دراسة باردة!. -و أن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس و لا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق! إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة. و لا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة. و الذين يعكفون على الكتب و الأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية «يجددون» بها الفقه الإسلامي أو «يطورونه» -كما يقول المستشرقون من الصليبيين!. -و هم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية للّه وحده، بتحكيم شريعة اللّه وحدها و طرد شرائع الطواغيت.. .. من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين، يجيء فقههم للدين من تحركهم به، و من تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي، يعيش بهذا الدين، و يجاهد في سبيله، و يتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة» (سيد

قطب؛ ١٩٦٧م، ٣/ ١٧٣٥).

١. ٥/ فرض أنواع الحرمان الاجتماعي، والتحقير بغية إبطال مفعول الأنشطة:

إنّ فرض أنواع الحرمان الاجتماعي من الستراتيجيات القرآنية لاحتواء النفاق. ومن البدهي أنّ أفراداً بتلك السمات لا يمكن الوثوق بهم؛ لأنّ مجالسة المنافقين، بغضّ النظر عن وقوفهم على أسرار المسلمين، تؤدّي إلى تأثير سلبي في نفوس المسلمين، وتلكؤهم عن إبداء ردود فعل ملائمة تجاههم. لذا نجد القرآن يأمر المسلمين مراراً وتكراراً بالابتعاد عن مجالسة الكفار والمنافقين ومقاطعتهم كستراتيجية أساسية في مواجهة أعداء الإسلام، وتترتّب عليها فوائد سياسية -اجتماعية جمّة. ومعسكر الكفر والنفاق جدّ خاسر قلق على هذه المقاطعة، لا سيّما عندما يمكنه اللعب وإدارة الموقف؛ إذ إنّ ربحه رهين بالتواصل مع المجتمع الإسلامي. إن أنظمة الكفر والنفاق الدولية تدرك خطورة هذه العلاقة، وتسعى بشتى الحيل والذرائع إلى إقامة هذه العلاقة لتحقيق أهدافها، وبالطبع حالفها النجاح في هذا المسار. ومن المؤسف أن المسلمين كلما ابتعدوا عن هذه الستراتيجية تكبدوا خسائر أفدح. ولا شكّ في أنّ الواجب يختلف تجاه النفاق؛ فبطبيعة الحال إذا سمحت ظروف المجتمع الديني، وطاقاته الفكرية والثقافية بتوجيه مجتمع الكفر والنفاق وضبطه، ورجحت كفة المجتمع الديني في الإعلام والتأثير، فحينئذ يختلف الواجب والمهمّة؛ إذ إن الواجب يقع على عاتق طائفة بعينها؛ يقول الله تعالى: ﴿... فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [سورة النساء: ٨٩].

إن إهمال المنافقين في الأوساط الاجتماعية وإقصاءهم عن مراكز القرار (الطوسي؛ لا تا، ٣/ ٢٨٤) فضلا عن كونهما عاملي ردع للمنافقين يعتبران من خطط العِقاب القرآنية لاحتواء النفاق. لا ريب أنّ المجتمع الذي يحظى بمقوّمات معرفيّة وتشجيعية ولا يقام فيه وزنٌ للمنافقين، رداً على تصرفاتهم

المنافقة، تسلب فيه إمكانية نموّ الرذائل الخلقية كالنفاق. ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٥].

نقل بعض المفسرين أو ذكروا أنواع هذا الحرمان في ذيل آية سورة التوبة كالتالي:

أي لتصفحوا عن لومهم. و -قال ابن عباس: أي لا تكلموهم. و في الخبر أنه قال ﷺ لما قدم من تبوك: (و -لا تجالسوهم و -لا تكلموهم). (القرطبي؛ ١٩٦٧م، ٨/ ٢٣١، والسيوطي؛ ٣/ ٢٦٨). «أي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقريع و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون». (الطباطبائي؛ ١٤١٧هـ، ٩/ ٣٦٣).

ولا يعني إهمال المنافقين والإعراض عنهم، الضعف أو المداراة دوماً. فالاسياسة القرآنية كما تصور اقتدار المجتمع النبوي، كذلك تقدّم إلينا صورة رائعة للإعراض عن المنافقين ليست ناجمة عن الرفق والمداراة؛ بل تهدف إلى عقوبة التيار المنافق وتحقيره (ابن كثير؛ ١٤١٩هـ: ٤/ ١٧٦) وتستعرض نظرة المسلمين الساخطة (مكارم الشيرازى، ١٤٢١ق، ٨/ ٩٠) واستحقار تحركات المنافقين.

هذه الخطة القرآنية على أساس الظروف المكتنفة لنزول سورة التوبة، تثبت أنّ احتواء النفاق قد يكمن في احتقارهم من جهة، وزيادة الطاقات الفكرية فى المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. وانحسار المنافقين في مثل هذه الظروف الذي يصحبه دوماً الاعتذار إلى المسلمين والتوجس من ردود فعلهم القهرية، من أهداف القرآن العِقابية والتربوية والستراتيجية؛ لأنه على حسب شواهد تاريخية طالب صحابة الرسول ﷺ بمعاقبة المنافقين وقتلهم، لكنّ رؤيته الستراتيجية الرشيدة الهادية منعته عن النزول عند مطاليب الصحابة.

٢. الستراتيجيات السياسية لاحتواء النفاق.

٢. ١/ التزام القياديين وأصحاب القرار بالتقوى، واجتناب الرضوخ لإملاءات الكفار والمنافقين:

على القياديين وأصحاب القرار- بصفتهم حملة النبراس وأدلّاء المجتمع- ألا يعدلوا عن الجادّة بمختلف الأعذار، أو يكفّوا عن مواصلة سيرهم الدؤوب بفعل التحديات الطارئة، أو يتأثروا بها. إنّ ذوي التأثير في المجتمع أو النخبة حسب التعبير المعاصر، فضلاً عن تمسكهم بتقوى الله الذي هو الأساس في إدارة الحياة الاجتماعية، و إلى جانب اجتنابهم مختلف المعاصي، عليهم ألا ينخدعوا بزخارف قول الأعداء، أو يأخذهم الرعب للهيبة الظاهرية للكفار والمنافقين، وإمكاناتهم المادية الهائلة (سيد قطب؛ ١٩٧٦م: ٥/ ٢٨٢٢) بل عليهم أن يتوكّلوا على النصر الإلهي. فإن الاستعانة بالعدو، واستشارة الكفار والمنافقين وطلب العلاج منهم (ابن كثير؛ ١٤١٩هـ: ٦/ ٣٣٥) لا يؤدي إلى غاية بل إنها السير على خطة العدوّ؛ لأنهم لا يرضون بأدنى من كفر المسلمين، أو القضاء عليهم [سورة النساء: ٨٩] لذا فإنّ الله تعالى كتب الواجب على الجميع عبر خطابه المباشر إلى الرسولﷺ بوصفه رأس المجتمع الإسلامي، محذّراً من إبداء أية مرونة في انتهاج خطط العدوّ والوثوق به [سورة هود: ١١٣] أينما وحيثما كان (الموسوي السبزواري؛ ١٤٠٩هـ، ٦/ ٢٧٧) واعتبر امتثال الأمر الإلهي كافياً للحركة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[سورة الأحزاب: ١ -٣] ويقول تعالى في موطن آخر: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٨] كتب بعض المفسرين ما يلي: «أي و أعرض عن أذاهم فإني سأكفيك أمرهم إذا توكلت

علي و عملت بطاعتي فإن جميعهم في سلطاني بمنزلة ما هو في قبضة عبدي» (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩ م، ٩/ ١٧٤، والطبرسي؛ ١٩٨٦ م: ٨/ ٥٦٩) «أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي لا تستقل بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك و كفى بالله وكيلاً». (الطباطبائي؛ ١٤٠٩هـ، ١٦/ ٣٣٠).

لم تتمكن ضغوط المنافقين على الحكومة النبوية قطّ من أن تشغله عن مهامّه، ولم ترغمه على فتح جبهة أخرى جديدة في الداخل؛ بل كان الرسولﷺ إلى جانب إلحاحه على مواقفه، يواصل تدابيره الرشيدة للحفاظ على الحكم الإسلامي، وتنحية المعارضة وتهميشها. ولم يكن الرسولﷺ يغفل عن واجبه المتمثل في تبليغ الآيات الإلهية، وهداية الناس نحو مجتمع عامر حرّ موحِّد.

في الحقيقة يمثّل هذا التعامل في تلك الحقبة الزمنية لحكومتهﷺ خيرَ أسلوب في التعامل مع الفتن والاضطرابات الداخلية، ويجسّد نموذجاً جديراً بالاحتذاء لحكّام المجتمع الإسلامي لئلا يتجاهلوا السيرة النبوية في التعامل مع المنافقين في ظروف مماثلة.

٢. ٢/ رصد العلاقات السريّة والعلنيّة بين المنافقين والكفار:

أنبأنا القرآن الكريم في مواقف متعددة بتواجد المنافقين في محافل الكفّار تواجداً سريعاً، وتولّيهم حتى تحقيق نواياهم [سورة المائدة: ٤١]كما حدّثنا عن علاقاتهم الوطيدة مع الكفار، والتعاون الوثيق بينهم [سورة الحشر: ١١] والتجسّس لهم [سورة التوبة: ٤٧]. هذا الاهتمام الجادّ يُعَدُّ تحذيراً للمجتمع الإسلامي ومسؤولي النظام الإسلامي ليحصنوا ويصونوا المجتمع أمام الآفات الكبيرة الناجمة عن تعاون الكفار والمنافقين، عبر الإشراف على مسار علاقات المنافقين بالكفار وضبط تحرّكاتهم المشبوهة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[سورة المائدة: ٤١].

٢. ٣/ رفع الكفاءات الإدارية والتحكم في أوضاع المجتمع السياسية:

إن أبرز سمات المنافقين في المنظور القرآني هو خوفهم من الحرب وبالتالي الموت. كذلك انكشاف نواياهم وأهدافهم عبر الوحي، إذ يعدّ من هواجسهم المهمّة. لذا كانت تحركات المسلمين وقراراتهم الجديدة على اختلاف أشكالها في العهد النبوي، ترعبهم وتذهب بهم الظنون إلى أنّ أسرارهم قد انكشفت وستصدر أحكام بحقّهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٣] لا شكّ في أنّ مثل هذا التيار لا يستطيع توجيه ضربة تُذكَر إلى المجتمع الإسلامي، في ظل سيطرة الحكّام على الموقف السياسي: ﴿...يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ [سورة المنافقون: ٤] لذا تُعَدّ الهيمنة على الموقف السياسي إحدى ستراتيجيات احتواء النفاق. والتيار المنافق يوقف تحركاته أو يقلّصها حال وقوفه على الكفاءة الإدارية في مسؤولي المجتمع الإسلامي، مخافة الوقوع في قبضة التيار المؤمن. فمن البدهي أنّ استمرار الحياة السياسية المستقلة ينتفي في العالم المعاصر من دون الإشراف على أوضاعه السياسية ورفع الكفاءات الإدارية والمعلوماتية، في ظلّ اتّساع رقعة الاتّصالات، وتعقّد الأوضاع السياسية. كلما كانت الهيمنة أكثر، كانت إمكانية احتواء النفاق أقوى؛ لأنّ النسبة بين قدرة تيارَيْ النفاق والكفر على التحرك، نسبة مباشرة دوماً.

٢. ٤/ توجيه التيار المنافق، وتحويله إلى فرصة:

مع أننا لا نستطيع الاطلاع المباشر على تحركات المنافقين لفقد النبي ﷺ وانقطاع الوحي عنّا، لكنّ القرآن في ضوء المعلومات الدقيقة التي تناولها في تحليلاته النفسية العميقة عن المنافقين، لم يوفّر لنا إمكانية رصد تحركاتهم، ولم يعرّفنا على مواصفاتهم الظاهرية والباطنية فحسب؛ بل مهّد لاحتواء النفاق وتوظيفه في مواجهة الكفار، لاتصاف المنافقين بصفات كانعدام التماسك التامّ، وجبنهم، وطمعهم، والأهمّ من ذلك كلّه، عدم اتحادهم الحقيقي مع الكفّار لخصائصهم الذاتيّة والوجوديّة. ونصّ في مواطن عديدة على أنهم ليسوا معكم، ولا مع الكفّار، وإنْ جمعتهم والكفارَ الأهدافُ وعذابُ الآخرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٤] وفي قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤٣].

إن توجيه النفاق بمستوياته الثلاثة الخَطِر، وقليل الخطر، والتصرفات المشبوهة بالنفاق، يتطلب اتخاذ تدابير خاصة. كما تعتبر توعية الجماهير عن طريق تنمية فكرها الديني، ومواصلتها حتى توصُّل الجماهير إلى اختيار الحياة الأخلاقية الكريمة المثلى، هدفاً لبعثة الأنبياء عليهم السلام، كذلك تعتبر ستراتيجية مبدئية في الإسلام. في الخطوة التالية إذا انضمت طائفة من المنافقين إلى الكفار وواكبتهم، بتخطي المحظورات، فحينئذ يمكن أيضاً توجيهها وتحويلها إلى فرصة لمواجهة الكفار، استناداً إلى الآيات المذكورة أعلاها، وصفات المنافقين المذكورة في القرآن؛ لأنّ هذه الصفات من الفرص التي توفّر لنا إمكانية استغلالهم لصالح المجتمع الإسلامي في حال اتخاذ التدابير اللازمة. من هذه الصفات حبّ السلامة، والخوف من الموت والمواجهة العسكرية، والطمع الشديد، والتواجد بين ظهراني الكفار ومجالستهم، والأبرز من كل ذلك نكثهم للعهود، والكذب

حتى في التعامل مع الكفار.

٢. ٥/ كشف النقاب عن وجوه النفاق عبر توعية الرأي العام أو التفويض المدروس لبعض المهامّ:

إن المنافق حية ليّن مسّها، قاتل سمّها، والغفلة عنه لا تحمد عقباها لقدرته الفائقة على التكيف والتأقلم مع البيئة وموافقة السلوكيات المختلفة. كلامه العذب المعسول يعجب الإنسان [سورة البقرة: ٢٠٤] من هنا ونظراً إلى ميزاتهم المذكورة في القرآن، يجب أحياناً كشف النقاب عن وجوههم لتبيُّن نواياهم الخبيثة لدى الرأي العام. لكن المنافقين لقدرتهم الفائقة على المغالطة، لا يتأتى الكشف عن وجوههم على وجهه الصحيح إلا إذا جعلهم في بوتقة الاختبار، بفضل تفويض مدروس للأمور والمناصب إليهم. ومن شأن التفويض المدروس المنظَّم أن يسفر عن استقطاب المنافقين إلى المجتمع الإسلامي وانصهارهم فيه، وتوفير إمكانية استغلال طاقاتهم لصالح النظام الإسلامي. ومن جهة ثانية يمكن أن يكشف هذا التفويض عن نواياهم. و ربّما يمكننا استنباط ذلك من ثنايا الآية التالية: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [سورة محمد: ٣٠ - ٣١].

٢. ٦/ التعامل القهري القاصم:

لقد اتفق الباحثون القرآنيون على ضرورة مجاهدة المنافقين بناءاً على نص الآية التالية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة التحريم: ٩] إلا أنهم اختلفوا على كيفية المجاهدة. فقد قال بعضهم بعدم كفاح المنافقين كفاحاً مسلحاً بحجة أن الرسولﷺ لم ينتهجه طوال عمره الشريف، ولم يقتل أحداً من المنافقين. (الطبرسي؛ ١٩٨٦م: ١٠/ ٤٧٨، و٥/ ٧٧، والطباطبائي: ٩/ ٣٣٩، وسيد قطب: ٤/ ٢٥٥) لقد كان الرسولﷺ يحكم عليهم بحسب الظاهر، وربما يبدي تجاههم مرونة

ولیناً، وعلى هذا لا يجوز قتالهم (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩م: ٦/ ١٠٣، و١٠/ ٥٧٣). وإن المراد بمجاهدتهم في الآية يتلخّص في إرغامهم على الإنذار وإتيان الفرائض. ومن المفسرين من يذهب إلى أنّ لفظة الجهاد عامّة، تشمل الكفاح بكافة أنواعه بما فيها المسلح، لكنّ القرآن لم يحدّد الأخير؛ بل إن له مراتب ومستويات يحددها الرسولﷺ على ما أوتي من صلاحيات وسلطات، وعلى حسب تشخيص الزمان والمكان (محمد حسين فضل الله؛ ١٩٩٦م: ١١/ ١٦٦، وحسن حنبكه الميداني: ٢/ ١٣٠) والمستفاد من الأدلة الحاصلة أن مجاهدة الكفار تتمّ بالسيف، ومجاهدة المنافقين تمرّ بمرحلتين: إقامة الحجج والبراهين، ومن ثمّ اللجوء إلى القوة (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩م، ٦/ ١٠٣، و١٠/ ٥٧٣).

تفيد دراسة المصادر اللغوية التفسيرية أن كلمة الجهاد ومادة الجهد لم تكن تستخدم قبل الإسلام في القتال، وكانت ألفاظ نحو: القتال، والحرب، تستخدم عادةً للكفاح المسلّح. لكن استخدامها في القرآن يفيد القتال والكفاح المسلّح في سبيل الله (ظاهرة النفاق: ٢/ ١٢٦، والطباطبائي؛ ١٤١٧هـ: ٩/ ٣٣٩، والمصطفوي: ٢/ ١٢٨).

هذا ويستفاد من أقوال البعض الآخر أنّ جهاد الكفار لا يختلف عن جهاد المنافقين، والجهاد كلّه يعني المواجهة والقتال. ومنهم الطبري حيث يروي الرواية التالية -بوصفها رأيه المختار -عن أبي جعفر، عن ابن مسعود: «و أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ما قال ابن مسعود، من أن الله أمر نبيهﷺ من الجهاد جهاد المنافقين، بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين». (الطبرى، ١٤١٢ق، ج١٠، ص١٢٧) وسيد قطب هو الآخر ينسب في أحد أقواله، قولاً إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالبؑ أنه قال: إن المراد بمجاهدة المنافقين هو الجهاد بالسيف(سيد قطب، ١٤١٢ ق، ج٦، ص، ٣٦٢١).

يبدو أن الدليل الرئيس للمفسرين في عدم التصريح بكيفية جهاد المنافقين، هو فقدان المواجهة العسكرية في سيرة الرسول الأكرمﷺ؛ لذا يجمعون على الكفاح المسلح في تفسير آية الجهاد ضد الكفار، لكنهم يلجأون إلى التأويل والتبرير بالرغم من تصريح القرآن بجهاد المنافقين في موطنين اثنين، ويحجمون عن التصريح عليه.

لا شكّ في أنّ جهاد الكفار بمعنى الكفاح المسلح، يجد مصداقيته حيث يتمردون عتاةً على الإسلام والمجتمع الإسلامي، أو يعرقلون تطبيق الأحكام الإسلامية، أو يتخطون طورهم ويتعدون حدّهم مبتغين ماوراءه. ففي مثل هذه الظروف لا فرق بين الكفار والمنافقين ويجمع جهاد كلا الفريقين معنى واحداً. والمنافقون كالمسلمين في التمتع بالخيرات المادية والمعنوية للمجتمع الإسلامي، ماداموا يعيشون بين المسلمين، ويُظهِرون الإسلام. كان الرسولﷺ يرصد تحركاتهم، وينصحهم ويعظهم، وينذرهم في الوقت المناسب، وكذلك كان يستفيد منهم لتطوير المجتمع الإسلامي. وإذا عدلوا عن هذا النهج، وخاضوا في محاولات معادية للإسلام، فقد كان الرسولﷺ ينظر في جرائمهم على أساس الأحكام الإسلامية، ويعاملهم معاملته لغيرهم من المجرمين. وإذا تمخضت محاولاتهم الهدّامة عن ظهور تيار يصطف أمام الإسلام، ويضع بينه وبين المسلمين حدوداً فاصلة، فحينئذ يجد الجهاد مصداقيته الكاملة دون أدنى شك، وتشملهم الآية؛ لكونها صريحة في مجاهدتهم والغلظة عليهم. ونجد النموذج العملي لمثل هذا التعامل بشأن منافقين كانوا يدعمون الكفار في خارج الحدود الإسلامية. وعندما اقتربوا من المدينة المنورة اختلف المسلمون على كيفية مواجهتهم (ابن هشام؛ لا تا، ٤/ ٢٥٣) الأمر الذي تبعه الانتقاد الإلهي حيث حذّرهم الله تعالى من التفرق والاختلاف على قتال المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٨ -٨٩].

تاريخياً نشاهد مواجهة الرسولﷺ الصارمة للمتآمرين على النظام الإسلامي، حيث استنفر الرسولﷺ المسلمين، وطلب من طائفة منهم التوجه نحو تبوك، حينئذ أرادت شرذمة منافقة صدّهم عن شهود ذلك الجهاد المقدس، فلما عرف الرسولﷺ أخبار هذه العصابة التجسسية، كلّف طلحة بن عبيد الله مع عدد من المقاتلين الأشاوس بإحراق المكان الذي احتشدوا فيه، ليكون عبرةً لهم وللمتأمرين في المستقبل. فباغتهم طلحة ورجاله لدى عقدهم اجتماعاً، فأحرقوا الدار، فلاذ المنافقون بالفرار، وألسنة النيران متصاعدة، وانكسرت رجل أحدهم أثناء الفرار. (السبحاني؛ ١٣٦٠ش: ٢/ ٣٨٨).

وبناء على المقولة المشهورة: "آخر الدواء الكيّ" إذا بادر التيار المنافق إلى اقتراف جريمة في المجتمع الإسلامي، بعدما لم تُجْدِ الوصفات الإنسانية الهادية العادلة نفعاً في علاج النفاق وتقويم أوده، فلا يبقى شكّ في ضرورة تطبيق الأحكام الإسلامية بحقه دونما مهادنة أو رفق، وذلك لاحتوائه، والحدّ من إلحاقه الأضرار والخسائر بالمجتمع، وتهديده الأمن الاجتماعي والسياسي. ولا يجوز الإهمال والمداراة على أساس نصّ الآية فحسب؛ بل إنّ مواجهته بالقوة والعنف، فرضٌ من القرآن عند انفصاله عن النظام الإسلامي، وتكوينه لمعسكر ضد المسلمين. والواقع أنّ الاحتواء الشامل في مثل هذا الموقف يتمثّل في ممارسة العنف الشامل ضد المنافقين.

نتائج البحث:

أسفرت الدراسة الدقيقة في آي الذكر الحكيم المتعلقة بظاهرة النفاق والمنافقين عن وجود ستراتيجية قرآنية جادة لمعالجة النفاق وأهله. والقرآن إلى جانب نظرته الهادية، إلى هذا

المرض الروحي وآفاته الاجتماعية والسياسية، يتمتع بستراتيجية أو خطّة رشيدة حكيمة لجميع مراتب النفاق المختلفة، لكونه مدمّراً في المستويين الفردي والاجتماعي. هذه الستراتيجيات التي تقع في طول بعضها أو عرضها، تندرج في الإطارين الثقافي والسياسي، وتنطلق من المداراة الرامية إلى الإرشاد والإصلاح، وتمرّ باتخاذ التدابير الاجتماعيةوالعقدية، وممارسة بعض أنواع الحرمان لتنتهي إلى التعامل القهري الصارم على أساس متطلبات الظروف، حال انفصال المنافقين عن المجتمع الإسلامي.

فهرست المصادر

القرآن الكريم.

١. ابن عاشور، محمد الطاهر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م، تفسير التحرير و التنوير، الطبعة الاولى، بيروت، موسسة التاريخ.

٢. ابن هشام، بي تا، السيرة النبويّة، تحقيق ابراهيم الابياري، بيروت دار احياء التراث العربي.

٣. الآمدي، ١٤٠٧ هـ، غررالحكم و درر الكلم، موسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت.

٤. البلاغي، محمد جواد، ١٤٢٠ هـ، آلاء الرحمن، الطبعة الاولي، قم، موسسة البعثه.

٥. الزمخشري، محمود بن عمر، بيتا، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الاقاويل في وجوه التأويل، مصحح مصطفي حسين احمد، منشورات البلاغه.

٦. سبحاني، جعفر، ١٣٧٤، فروغ ابديت، چاپ دهم، ج ١و٢، قم، دفتر تبليغات اسلامي حوزة علميه قم مركز انتشارات.

٧. سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م، الطبعة الخامسه، بيروت، دار احياء التراث العربي.

٨. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، بي تا، تفسير الدر المنثور، بيروت، دار الفكر.

٩. الطباطبائي، سيد محمد حسين،

١٤١٧ هـ، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الاولي، بيروت، موسسة الاعلمي للمطبوعات.

١٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الاولي، بيروت، دار المعرفه.

١١. الطبري، محمد بن جرير، ١٤٢٠هـ، جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبعة الثالثه، بيروت، دار الكتب العلميّة.

١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، بيروت، دار احياء التراث العربي.

١٣. العروس الحويزي، علي بن جمعه، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، تفسير نور الثقلين، تحقيق: السيد علي عاشور، الطبعة الاولي، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي

١٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة، بيروت، دار احياء التراث العربي.

١٥. الفريابي، محمد، ١٤١٠ ق، صفة النفاق وذم النافقين، تحقيق: عبد الرقيب بن علي، الطبعة الاولى بيروت، دار ابن زيدون.

١٦. القرطبي، محمد، ١٩٦٧م، الجامع لاحكام القرآن، الطبعة الثالثة، بيروت، دار احياء التراث.

١٧. الطوسي، محمد بن الحسن، ١٤١٤، الامالي، دار الثقافة، قم، التحقيق: قسم الدراسات الاسلامية.

١٨. فضل الله، محمد حسين، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨ م، تفسير من وحي القرآن، الطبعة الثانية، بيروت، دارالملاك.

١٩. المحمدي الري شهري، محمد، ١٣٦٢ ش، ميزان الحكمة، الطبعة الاولى، قم، مكتب الاعلام الاسلامي.

٢٠. المدرسي، محمد تقي، ١٣٧٧ ش، تفسير هدايت، ترجمه احمد آرام، چاپ اول، مشهد بنياد و پژوهشهاي اسلامي آستان قدس رضوي.

٢١. المطهري، مرتضى، ١٣٦٨ش، آشنايي با قرآن، ج١ و ٢، چاپ چهارم، تهران، صدرا.

٢٢. مغنية، محمد جواد، ١٩٩٠م، التفسير الكاشف، الطبعة الرابعة، بيروت، دارالعلم للملايين.
٢٣. مكارم شيرازي، ناصر، ١٣٧٤ ش، تفسير نمونه، چاپ نوزدهم، طهران، دار الكتب الاسلامية.
٢٤. مكارم شيرازي، ناصر، ١٤١٣، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الاولي، بيروت، مؤسسة البعثة.
٢٥. الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكه، ١٤١٤هـ، ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، الطبعة الاولي، بيروت، دار القلم.
٢٦. ميرزائی، محمد، پيدايش پديده نفاق از منظر قرآن" (نشوء ظاهرة النفاق من منظور القرآن)، مجله تخصصي دانشگاه علوم إسلامي رضوي، ١٣٨٣، العدد ١٤، ص١٣٧ -١٢١.
٢٧. ميرزائی، محمد، "مفهوم شناسی نفاق، انواع و مراتب آن از منظر قرآن"، آموزه های قرآنی، ١٣٩٠، الرقم ١٤، ص١٥١ -١٣١.
٢٨. النراقي، احمد بن محمد مهدي، ١٣٧٨ ش. معراج السعاده، چاپ ششم، قم، هجرت.
٢٩. نهج البلاغة فيض الاسلام، ١٣٦٨ش، مترجم: سيد جعفر شهيدي، چاپ اوّل، تهران، سازمان انتشارات و آموزش انقلاب اسلامي.
٣٠. الواحدي، علي بن احمد، بي تا، اسباب نزول القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية.